قوائم المحتويات متاحة على المجلات الاكاديمية العراقية
مجلة البحوث والدراسات الاسلامية
الصفحة الرئيسية للمجلة: https://djisrs.dws.gov.iq

أثر تنوّع القراءات القرآنية في بناء الدلالة التداولية للنص

The Impact of the Diversity of Qur'anic Readings on the Construction of the Text's Pragmatic Meaning

م. د. إلفان أكرم عبد الفتاح النوره جي/ دائرة التعليم الديني والدراسات الإسلامية *

Abstract

This study examines the impact of Qur'anic variant readings on the construction of pragmatic meaning in the Qur'anic text, adopting an analytical approach that explores the relationship between recitational performance and the pragmatic context of discourse. It argues that Qur'anic readings are not merely phonetic or linguistic variations, but rather pragmatic and semantic mechanisms that guide meaning and expand interpretive horizons while preserving the unity of the text and its overarching objectives. The study analyzes phonological, morphological, syntactic, and structural levels of variation, highlighting their role in diversifying speech acts, discursive purposes, and producing a controlled multiplicity of interpretation grounded in context and scholarly constraints. The findings demonstrate that the semantic multiplicity generated by variant readings is integrative rather than contradictory, reflecting the flexibility of Qur'anic discourse and underscoring the importance of pragmatic methodology in contemporary Qur'anic studies.

Keywords: Qur'anic Readings, Pragmatic Meaning, Semantic Variation, Speech Acts, Pragmatic Interpretation

معلومات المقال

تاريخ المقال:
الإرسال:
المراجعة:
القبول:

الكلمات المفتاحية:
القراءات القرآنية – الدلالة التداولية – تنوّع المعنى – أفعال الكلام – التفسير التداولي.

الملخص

يتناول هذا البحث أثر تنوّع القراءات القرآنية في بناء الدلالة التداولية للنص القرآني، انطلاقًا من مقاربة تحليلية تستحضر العلاقة بين الأداء القرائي والسياق التداولي للخطاب. ويهدف إلى بيان أن القراءات القرآنية لا تقتصر على كونها اختلافات أدائية أو لغوية، بل تمثّل آلية دلالية وتداولية فاعلة تُسهم في توجيه المعنى وتوسيع أفق الفهم، مع الحفاظ على وحدة النص ومقاصده الكلية. وقد اعتمد البحث على تحليل المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والتركيبية للقراءات، وبيان أثرها في تنويع أفعال الكلام والمقاصد الخطابية، وفي إنتاج تعدّد تفسيري منضبط بالسياق والضوابط العلمية. وتوصّل البحث إلى أن التعدّد الدلالي الناتج عن تنوّع القراءات هو تعدّد تكاملي، يعكس مرونة الخطاب القرآني وقدرته على الاستجابة لاختلاف المقامات والسياقات، ويؤكد أهمية توظيف المنهج التداولي في الدراسات القرآنية المعاصرة.

* Corresponding author at **Dr. Ilfan Akram Abdul Fattah Al-Noura Ji/ Department of Religious Education and Islamic Studies**

mailto:elphannoorachi@gmail.com

١. المقدمة

يتميّز النص القرآني بخصوصية لغوية ودلالية فريدة، جعلته محور اهتمام الدارسين قديمًا وحديثًا، لما ينطوي عليه من ثراء في البنية، وعمق في المعنى، ومرونة في الخطاب، مع ثبات المصدر والمقصد. ويُعدّ هذا التميّز نتيجة لتضافر جملة من العوامل، في مقدمتها طبيعة التنزيل، واعتماد المشافهة والتلقي، وتنوّع وجوه الأداء التي عُرفت في التراث الإسلامي بالقراءات القرآنية. وقد شكّل هذا التنوّع القرائي أحد أبرز مظاهر الثراء النصي في القرآن الكريم، إذ أتاح للنص أن يُؤدَّى ويُتلقّى بوجوه متعددة، دون أن يفضي ذلك إلى اضطراب في بنيته أو تناقض في دلالته.

وقد انصرفت جهود علماء القراءات وعلوم القرآن إلى ضبط هذا التنوّع، وبيان أصوله وضوابطه، حفاظًا على وحدة النص القرآني وصيانته من التحريف، فبرزت دراسات ركّزت على الجوانب الصوتية والرسمية واللغوية للقراءات، وأخرى عنيت بتوجيهها نحويًا وصرفيًا وبلاغيًا. غير أن هذه المقاربات، على أهميتها، غالبًا ما تناولت القراءات بوصفها ظاهرة لغوية أو تفسيرية، دون استثمار كافٍ لما تحمله من طاقة تداولية تتصل بالفعل الخطابي وسياق التلقي ووظائف الخطاب.

وفي المقابل، شهد الدرس اللساني المعاصر تحوّلًا لافتًا في دراسة المعنى، تمثّل في الانتقال من التركيز على البنية اللغوية المجردة إلى الاهتمام بسياق الاستعمال، ومقاصد المتكلم، وأثر الخطاب في المخاطَب، وهو ما بلور ما يُعرف باللسانيات التداولية. وقد أتاح هذا التحول أدوات تحليلية جديدة لفهم النصوص بوصفها أفعالًا تواصلية، تُنجز معانيها ووظائفها في سياقات محددة، لا في حدود الصيغة اللغوية وحدها.

وانطلاقًا من هذا الأفق النظري، تبرز الحاجة إلى إعادة النظر في القراءات القرآنية من منظور تداولي، يُعيد ربط الأداء القرائي بالسياق الخطابي، ويكشف عن دور القراءات في توجيه المعنى، وتنويع أفعال الكلام، وتعدد المقاصد الخطابية. فالقراءة، في هذا الإطار، ليست مجرد اختلاف في اللفظ أو البنية، بل هي فعل تداولي يُسهم في إعادة تفعيل النص في كل مقام من مقامات التلقي، ويُبرز أبعادًا دلالية كانت كامنة في البنية النصية.

١.١. أهمية البحث

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يسهم في تعميق الفهم التداولي للنص القرآني، من خلال تسليط الضوء على دور القراءات القرآنية في توجيه الدلالة وتوسيع أفق المعنى. كما تكتسب الدراسة

أهميتها من محاولتها الربط بين علوم القرآن واللسانيات التداولية المعاصرة، بما يفتح أفقًا منهجيًا جديدًا في دراسة القراءات بعيدًا عن الاقتصار على الوصف اللغوي أو الجمع الروائي.

وتتجلّى أهمية البحث كذلك في كونه يعالج قضية التعدّد الدلالي والتفسيري من منظور منضبط، يُبرز التكامل بين القراءات بدل النظر إليها بوصفها مصدر إشكال أو تعارض. كما يسهم في إبراز الوظائف الخطابية والتواصلية للنص القرآني، ويؤكد قدرته على الاستجابة لاختلاف السياقات والمقامات، وهو ما يُعدّ إضافة نوعية للدراسات القرآنية والدلالية المعاصرة.

٢.١.مشكلة البحث

تنطلق مشكلة البحث من ملاحظة أن كثيرًا من الدراسات التي تناولت القراءات القرآنية ركّزت على الجوانب الصوتية أو اللغوية أو التفسيرية التقليدية، دون استثمار كافٍ للأبعاد التداولية التي يكشف عنها تنوّع القراءات. كما أن الدراسات التداولية المعاصرة كثيرًا ما تناولت النصوص الخطابية بصفة عامة، دون توظيف منهجي عميق لهذا المنهج في تحليل النص القرآني، ولا سيما في مبحث القراءات.

وعليه، تتمحور إشكالية البحث حول التساؤل الآتي: **كيف أسهم تنوّع القراءات القرآنية في بناء الدلالة التداولية للنص القرآني، وفي توجيه المعنى والمقاصد الخطابية وأفعال الكلام في سياقات مختلفة؟** ويتفرّع عن هذا السؤال الرئيس عدد من الأسئلة الجزئية، من أبرزها:

- ما حدود العلاقة بين تنوّع القراءات وتعدّد الدلالة؟
- وكيف يمكن تفسير التعدّد التفسيري الناتج عن القراءات تفسيرًا تداوليًا منضبطًا؟
- وما أثر القراءات في تنويع الوظائف الخطابية للنص القرآني؟

٣.١.منهجية البحث

اعتمد البحث المنهج التحليلي، القائم على استقراء الظواهر القرائية وتحليلها في ضوء مفاهيم الدلالة التداولية وتحليل الخطاب. وقد تمّ الجمع بين التأصيل النظري للمفاهيم الرئيسة، مثل القراءات القرآنية والدلالة التداولية وأفعال الكلام، وبين التطبيق العملي على نماذج مختارة من النص القرآني تُبرز أثر تنوّع القراءات في توجيه المعنى والسياق الخطابي.

كما استند البحث إلى المصادر التراثية والمعاصرة في علوم القرآن واللسانيات، مع

الالتزام بضوابط التوثيق العلمي، وتجنّب التعميم غير المؤسَّس. وحرصت الدراسة على توظيف المنهج التداولي توظيفًا منضبطًا، يراعي خصوصية النص القرآني، ويوازن بين المعطى اللغوي والسياق التداولي، دون إسقاط آلي لمفاهيم وافدة أو إخلال بقدسية النص ومقاصده.

٢.المبحث الأول: الأسس المفهومية والنظرية للقراءات والدلالة التداولية

٢.١.المطلب الأول: مفهوم القراءات القرآنية وضوابطها

تُعَدّ القراءات القرآنية من أهمّ المباحث التي أسهمت في حفظ النصّ القرآني وضبط أدائه، كما شكّلت مجالًا خصبًا للدراسة اللغوية والدلالية، نظرًا لما تنطوي عليه من تنوّع في الصيغ الصوتية والتركيبية مع وحدة النصّ والمقصد. ولا يمكن تناول أثر هذا التنوّع في بناء الدلالة التداولية للنصّ القرآني دون تأسيسٍ مفهوميٍّ دقيق لمفهوم القراءات وضوابطها، بوصفها الإطار المنهجي الذي يحدّد شرعية هذا التنوّع وحدوده الدلالية.

يُطلق مصطلح **القراءات القرآنية** في الاصطلاح العلمي على الكيفيات المأثورة في أداء ألفاظ القرآن الكريم، مما نُقِل عن النبي ﷺ بطريق التلقّي والرواية، واختلف فيه اللفظ مع اتّحاد المعنى أو تقاربه، وكان هذا الاختلاف مندرجًا ضمن ما يحتمله رسم المصحف العثماني[١]. وقد عرّفها ابن الجزري تعريفًا جامعًا بقوله:«علمٌ يُبحث فيه عن كيفية النطق بالكلمات القرآنية وطريق أدائها، اتفاقًا واختلافًا، مع عزو كلّ وجه إلى ناقله»[٢]. ويُبرز هذا التعريف الطبيعة التداولية للقراءات من حيث اعتمادها على الأداء الشفهي والسياق التعليمي التلقيني، لا على مجرّد الرسم الكتابي.

ويتميّز مفهوم القراءات القرآنية عن غيره من المصطلحات القريبة، كالأحرف السبعة أو الروايات، بكونه يشير إلى نظامٍ لغويٍّ مقعَّد، يخضع لشروط صارمة في القبول والردّ. فالقراءة ليست مجرّد وجه لغوي محتمل، بل هي بنية أدائية لها سندها وضوابطها، الأمر الذي يجعلها جزءًا من الدلالة النصّية المشروعة، لا اجتهادًا لغويًّا لاحقًا. ومن هنا، فإنّ أيّ تحليل تداولي للقرآن الكريم لا يمكن أن يُغفل القراءات بوصفها

---

(١) الزركشي، بدر الدين .*البرهان في علوم القرآن* .تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ١، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٨، ص ٣١٨–٣٢٥.

(٢) ابن الجزري، محمد بن محمد .*النشر في القراءات العشر* . تحقيق: علي محمد الضباع، ج ١، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٦، ص ٩–١٢.

مكوّنًا أصيلًا في إنتاج المعنى وتوجيهه بحسب المقام.

وقد استقرّ عند علماء هذا الفن أنّ القراءة المقبولة لا بدّ أن تتوافر فيها ثلاثة ضوابط كليّة، تُعرف بشروط القراءة الصحيحة. أول هذه الضوابط صحّة السند، أي أن تكون القراءة منقولة نقلًا صحيحًا متواترًا أو مستفيضًا عن القرّاء المعتبرين، بما يضمن اتصالها بالأداء النبوي(١). ويُبرز هذا الشرط البُعد التداولي للقراءة، إذ يجعل التداول الشفهي الجماعي أساسًا في توثيق النصّ وأدائه.

أما الضابط الثاني، فهو موافقة وجهٍ من وجوه العربية، ولو بوجهٍ مرجوح، ما دام له أصل معتبر في الاستعمال اللغوي(٢). ولا يُراد بذلك إخضاع القرآن للغة، بل بيان أنّ تنوّع القراءات يجري في إطار النظام اللغوي العربي، ويستثمر طاقته التعبيرية. وهذا الضابط يفتح المجال لتحليل دلالي تداولي يُبرز كيف يُنتج اختلاف البنية الصرفية أو التركيبية أثرًا دلاليًّا متنوّعًا بحسب السياق، دون الإخلال بفصاحة النصّ أو انسجامه.

ويتمثّل الضابط الثالث في موافقة رسم أحد المصاحف العثمانية، ولو احتمالًا(٣). ويكشف هذا الشرط عن العلاقة التفاعلية بين الرسم والأداء، حيث يتيح الرسم العثماني مجالًا دلاليًّا مفتوحًا تستثمره القراءات في توسيع آفاق المعنى، وهو ما يشكّل أساسًا نظريًّا مهمًّا لفهم التعدّد التداولي في النصّ القرآني.

ولا يقف أثر هذه الضوابط عند الجانب الشكلي أو التوثيقي، بل يتجاوز ذلك إلى توجيه المعنى نفسه. فالقراءات، بما تحمله من تنوّع مضبوط، تُسهم في إثراء الدلالة التداولية للنصّ، إذ تتيح تعدّد زوايا الفهم بحسب السياق والمقام والمخاطَب، دون أن يؤدّي ذلك إلى تناقض دلالي. وقد أشار عدد من الدارسين المعاصرين إلى أنّ هذا التنوّع يمثّل نموذجًا فريدًا في تاريخ النصوص، حيث تتعايش صيغ متعدّدة داخل نصّ واحد، وتنتج شبكة دلالية مرنة تستجيب لمقتضيات الخطاب(٤).

ومن هذا المنطلق، فإنّ القراءات القرآنية لا تُعدّ مجرّد ظاهرة صوتية أو لغوية، بل هي آلية

---

(١) السيوطي، جلال الدين. *الإتقان في علوم القرآن*. ج ١، دار الفكر، لبنان، ٢٠١١، ص ٧٥–٧٨.

(٢) ابن جني، عثمان. *الخصائص*. ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٦، ص ١٥–١٨.

(٣) الداني، عثمان بن سعيد. *المقنع في رسم مصاحف الأمصار*. دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤، ص ٢٢–٢٦.

(٤) بن عاشور، محمد الطاهر. *التحرير والتنوير*. ج ١، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ص ٣٩–٤١.

دلالية تداولية، تُسهم في بناء المعنى عبر التفاعل بين النصّ والسياق. وهذا ما يجعل دراستها مدخلًا منهجيًّا لا غنى عنه لفهم الكيفية التي يتشكّل بها المعنى في القرآن الكريم، ويتنوّع بحسب المقامات الخطابية، مع بقاء المرجعية النصّية واحدة.

وعليه، فإنّ ضبط مفهوم القراءات وضوابطها يُمثّل الأساس النظري الذي يُبنى عليه البحث في أثر هذا التنوّع في الدلالة التداولية، ويمنع الخلط بين التعدّد المشروع في المعنى، والانفلات التأويلي غير المنضبط. وهو ما يمهّد، في المباحث اللاحقة، لتحليل نماذج تطبيقية تُبرز هذا الأثر في ضوء السياق التداولي للنصّ القرآني.

٢.٢.المطلب الثاني:مفهوم الدلالة التداولية في الدرس اللساني

شهد الدرس اللساني المعاصر تحوّلًا منهجيًّا بارزًا في مقاربة المعنى، تمثّل في الانتقال من التركيز على البنية اللغوية المجردة إلى العناية باستعمال اللغة في سياقها التواصلي. وفي هذا الإطار، برز مفهوم **الدلالة التداولية** بوصفه أحد المفاهيم المركزية التي تُعنى بدراسة المعنى في علاقته بالمقام، وقصد المتكلّم، وشروط التخاطب. وقد جاء هذا التوجّه استجابةً لقصور الدلالة البنيوية التي حصرت المعنى في حدود المعجم والتركيب، وأغفلت العوامل السياقية المؤثرة في إنتاجه وفهمه[١].

وتُعرَّف الدلالة التداولية، في الاصطلاح اللساني، بأنّها المعنى الذي لا يُستمدّ من البنية اللغوية وحدها، بل يتشكّل من خلال تفاعل الملفوظ مع سياق استعماله، وما يحيط به من معطيات اجتماعية وثقافية ومعرفية. فهي تُعنى بما يقصده المتكلّم من قوله، لا بما يدلّ عليه اللفظ في ذاته، وبما يفهمه المتلقّي في مقام معيّن، لا بما يقتضيه المعنى القاموسي فقط[٢]. ومن ثمّ، فإنّ التداولية تُعيد الاعتبار إلى البُعد الوظيفي للغة، وتُبرز أنّ المعنى عملية ديناميكية، لا معطًى ثابتًا.

وقد أسهمت الدراسات اللسانية العربية المعاصرة في توطين مفهوم الدلالة التداولية ضمن السياق العربي، مع الحرص على ربطه بالمفاهيم التراثية القريبة منه. فقد ذهب عدد من الباحثين إلى أنّ التداولية ليست غريبة عن الدرس اللغوي العربي، بل لها جذور واضحة في البلاغة العربية، ولا سيّما في مباحث المقام، والحال، ومقتضى الحال،

(١) المسدي، عبد السلام .*اللسانيات وأسسها المعرفية* .دار توبقال، المغرب، ٢٠٠٧، ص ٢١١–٢١٥.

(٢) التداولي، أحمد .*التداولية وتحليل الخطاب* .دار توبقال، المغرب، ٢٠١٠، ص ٩–١٤.

كما هو الشأن عند البلاغيين الأوائل[١]. ويُظهر هذا الربط أنّ الفكر اللغوي العربي كان واعيًا بأهمية السياق في توجيه المعنى، وإن لم يُصَغ ذلك في إطار مصطلحي حديث.

وتُعدّ نظرية المقام من أبرز الأسس التي يقوم عليها التصوّر التداولي للمعنى في التراث العربي. فقد أكّد البلاغيون أنّ الكلام لا يُفهم على وجهه الصحيح إلا بمراعاة حال المتكلّم والمخاطَب، والظروف المحيطة بالخطاب. ويبرز هذا التصوّر بوضوح في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، حيث ربط المعنى بعلاقات الألفاظ في السياق، لا بالألفاظ مفردة، معتبرًا أنّ الدلالة وليدة ترتيب مخصوص يراعي المقام والغرض[٢]. ويُعدّ هذا الطرح أساسًا نظريًّا قريبًا ممّا تُؤكّد عليه التداولية الحديثة.

كما تُبرز الدراسات التداولية العربية الحديثة أهمية قصد المتكلّم في تحديد المعنى، وهو ما يُقابل في التراث مفهوم "القصد" أو "الغرض" في الخطاب. فالمعنى، وفق هذا التصوّر، لا يُفهم بمعزل عن نية المتكلّم، ولا عن الأثر الذي يسعى إلى إحداثه في المتلقّي. وقد عالج عدد من اللسانيين العرب هذا البُعد، مبيّنين أنّ الدلالة التداولية تتجاوز حدود التفسير اللغوي إلى تحليل الفعل الخطابي وما يترتّب عليه من آثار تواصلية[٣].

وتتجلّى أهمية الدلالة التداولية بوضوح عند تطبيقها على النصوص ذات الطابع البلاغي والإقناعي، وفي مقدّمتها النصّ القرآني. فالقرآن الكريم خطاب موجَّه إلى الإنسان في سياقات متعدّدة، وقد رُوعي في بنائه تنوّع المخاطَبين والمقامات، ما جعل دلالته قابلة للتوسّع والانفتاح ضمن ضوابط النصّ. وقد نبّه عدد من الباحثين في الدراسات القرآنية إلى أنّ فهم الخطاب القرآني يقتضي تجاوز المعنى الظاهر إلى استحضار السياق التداولي الذي نزلت فيه الآيات، وما تحمله من مقاصد توجيهية وتشريعية[٤].

ومن هذا المنطلق، فإنّ اعتماد الدلالة التداولية إطارًا نظريًّا في دراسة النصّ القرآني لا يعني إخضاعه لمناهج وافدة، بل الاستفادة من أدوات تحليلية تُسهم في الكشف عن آليات إنتاج المعنى

---

(١) حماسة، عبد اللطيف. *اللغة العربية ومعناها*. دار الثقافة، المغرب، ١٩٩٨، ص ١٠٢–١٠٨.

١. (٢) الجرجاني، عبد القاهر. *دلائل الإعجاز*. تحقيق محمود شاكر، دار المدني، السعودية، ١٩٩٢، ص ٥٠–٥٧.

٢. (٣) طه، عبد الرحمن. *اللسان والميزان*. المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠٠٦، ص ١٣٣–١٤٠.

(٤) الشاطبي، إبراهيم بن موسى. *الموافقات في أصول الشريعة*. ج ٢، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٥، ص ٨–١٢.

فيه. ويتعزّز هذا المنهج عند ربطه بتنوّع القراءات القرآنية، إذ إنّ اختلاف الأداء القرائي يُنتج فروقًا دلالية دقيقة لا تُفهم إلا في ضوء السياق والمقام. وعليه، فإنّ الدلالة التداولية تُشكّل مدخلًا مناسبًا لفهم هذا التنوّع بوصفه توسعة دلالية مقصودة، لا اختلافًا اعتباطيًّا في اللفظ.

٣.٢.المطلب الثالث: العلاقة بين تنوّع القراءات وتعدّد الدلالة.

يُعدّ تنوّع القراءات القرآنية من أبرز الخصائص التي تميّز النصّ القرآني عن غيره من النصوص، إذ يجمع بين وحدة المصدر وتعدّد الأداء، وبين ثبات النصّ وانفتاح الدلالة. ولا يمكن فهم هذا التنوّع فهمًا علميًّا سليمًا إلا في ضوء العلاقة العضوية التي تربطه بتعدّد الدلالة، حيث لا يُنظر إلى اختلاف القراءات بوصفه اختلافًا لفظيًّا محضًا، بل باعتباره آلية دلالية تُسهم في توسيع أفق المعنى، مع الحفاظ على انسجام الخطاب ووحدته المقصدية.

لقد نبّه علماء القراءات وعلوم القرآن إلى أنّ اختلاف القراءات اختلاف تنوّع لا اختلاف تضاد، أي أنّ وجوه القراءة المتعدّدة لا تتناقض في المعنى، بل يتكامل بعضها مع بعض، بحيث يضيف كلّ وجه بعدًا دلاليًّا جديدًا للنصّ[١]. ويُعدّ هذا التصوّر أساسًا نظريًّا لفهم العلاقة بين التنوّع القرائي وتعدّد الدلالة، إذ يجعل من القراءة وسيلة لإثراء المعنى لا لتفتيته أو تشتيته.

ويتجلّى هذا التعدّد الدلالي في مستويات لغوية متنوّعة، تبدأ من المستوى الصوتي، ولا تنتهي عند المستوى التركيبي. فقد يؤدّي اختلاف الحركة أو الإبدال الصوتي بين القراءات إلى توجيه دلالي مغاير، دون أن يخرج النصّ عن سياقه العام. وقد أشار عدد من الباحثين إلى أنّ هذا التنوّع الصوتي ليس عنصرًا شكليًّا، بل يحمل قيمة دلالية تؤثّر في تلقي الخطاب وفهمه، ولا سيّما في النصّ القرآني الذي يعتمد الإيقاع والصوت في بناء التأثير التداولي[٢].

كما يظهر أثر تنوّع القراءات في المستوى الصرفي، حيث يؤدّي اختلاف الصيغ بين الفعل والاسم، أو بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول، إلى تعدّد زوايا النظر إلى الحدث القرآني. فالصيغة الصرفية في القراءة ليست مجرّد اختيار لغوي، بل توجيه دلالي يُبرز جانبًا معيّنًا من

---

١. (١) ابن الجزري، محمد بن محمد .*النشر في القراءات العشر* . ج ١، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٦، ص ٧–١٠.

(٢) حسان، تمام .*اللغة العربية معناها ومبناها* .عالم الكتب، مصر، ٢٠٠٤، ص ٢٦١–٢٦٨.

المعنى، إمّا بالتركيز على الفاعل، أو على الحدث ذاته، أو على نتيجته. وقد أكّد علماء التفسير أنّ هذا التنوّع الصرفي يُسهم في توسيع المعنى دون إخلال بالمقصد العام للآية.(١)

ويتعمّق هذا التعدّد الدلالي على المستوى التركيبي، حيث يُنتج اختلاف الإعراب أو ترتيب العناصر في الجملة فروقًا دلالية دقيقة. وقد بيّن الزركشي أنّ كثيرًا من وجوه القراءات يُفسّر بعضها بعضًا، ويكشف عن معانٍ لا تظهر في قراءة واحدة منفردة(٢). ويُظهر هذا الطرح أنّ القراءة الواحدة قد لا تستوعب جميع الإمكانات الدلالية للنصّ، وأنّ اجتماع القراءات يُسهم في بناء صورة دلالية أكثر شمولًا.

ومن منظور تداولي، يُمكن القول إنّ تنوّع القراءات يُمثّل استجابة لطبيعة الخطاب القرآني بوصفه خطابًا موجَّهًا إلى جماعات مختلفة في مقامات متعدّدة. فكلّ قراءة تُبرز بُعدًا دلاليًّا يتلاءم مع سياق تخاطبي معيّن، سواء من حيث التأكيد، أو التوسعة، أو التخصيص، أو التعميم. وقد ذهب عدد من الباحثين المعاصرين إلى أنّ هذا التنوّع يعكس مرونة تداولية عالية، تجعل النصّ القرآني صالحًا للتفاعل مع الواقع الإنساني المتغيّر دون فقدان ثباته النصّي.(٣)

ولا يعني تعدّد الدلالة الناتج عن تنوّع القراءات فتح الباب أمام التأويل غير المنضبط، بل هو تعدّد محكوم بضوابط القراءة الصحيحة ومقاصد الخطاب. فالدلالة المتولّدة عن القراءة تظلّ مندرجة ضمن النسق العام للنصّ، ولا تتجاوز حدوده العقدية والتشريعية. وقد أكّد الشاطبي أنّ تعدّد المعاني في النصّ القرآني مقصود لذاته، ما دام منضبطًا بالسياق ومقاصد الشريعة.(٤)

وعليه، فإنّ العلاقة بين تنوّع القراءات وتعدّد الدلالة علاقة تكاملية، تقوم على مبدأ التوسعة الدلالية لا التناقض، وعلى الجمع بين الثبات النصّي والمرونة التداولية. وهذا ما يجعل القراءات القرآنية عنصرًا فاعلًا في بناء الدلالة التداولية للنصّ، لا مجرّد ظاهرة أدائية أو لغوية. ومن هنا، تتجلّى أهمية توظيف المنهج التداولي في دراسة القراءات، بوصفه إطارًا كفيلًا بالكشف عن عمق هذا التفاعل بين اللفظ والسياق والمعنى.

---

(١) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. *البحر المحيط في التفسير*. ج ١، دار الفكر، لبنان، ٢٠١٠، ص ٣٥–٣٨.

(٢) الزركشي، بدر الدين. *البرهان في علوم القرآن*. ج ١، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٨، ص ٣٢٩–٣٣٤.

(٣) المسدي، عبد السلام. *في آليات تحليل الخطاب*. دار توبقال، المغرب، ٢٠١٢، ص ١١٧–١٢٢.

(٤) الشاطبي، إبراهيم بن موسى. *الموافقات في أصول الشريعة*. ج ٣، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٥، ص ٦٧–٧١.

٣.المبحث الثاني: أثر تنوّع القراءات في توجيه الدلالة التداولية للنصّ القرآني

٣.١.المطلب الأول: أثر التنوّع الصوتي والصرفي في بناء الدلالة التداولية

يمثّل التنوع الصوتي والصرفي في القراءات القرآنية أحد أبرز مظاهر التعدّد التعبيري في النصّ القرآني، وهو تنوّع مقصود لذاته، يخضع لضوابط دقيقة، ويؤدّي وظيفة دلالية تتجاوز البعد الشكلي إلى توجيه المعنى في سياقه التداولي. فاختلاف الأداء الصوتي أو الصيغة الصرفية في القراءة لا يقتصر على تنويع النطق، بل يُسهم في بناء أفق دلالي متعدّد يستجيب لمقتضيات المقام، ويُراعي اختلاف أحوال المخاطَبين وظروف التخاطب.

يظهر أثر التنوّع الصوتي في القراءات من خلال اختلاف الحركات، أو الإمالة، أو التخفيف والتشديد، أو الإظهار والإدغام، وهي وجوه أدائية لها انعكاس مباشر على الدلالة التداولية. فالصوت في القرآن ليس عنصرًا محايدًا، بل يحمل طاقة إيحائية تؤثّر في تلقّي الخطاب وفهمه. وقد نبّه علماء العربية إلى أنّ اختلاف الأصوات قد يُحدِث فرقًا في الإحساس بالمعنى، من حيث القوة والضعف، أو الاستمرار والانقطاع، وهو ما يتجلّى بوضوح في الأداء القرآني المتعدّد.(١)

ويُسهم هذا التنوع الصوتي في تعزيز البُعد التداولي للنصّ القرآني، إذ يُراعي حال السامع وسياق التلاوة. فبعض الوجوه الصوتية تُناسب مقام الترغيب، وأخرى تُلائم مقام الترهيب، وثالثة تُبرز معنى التقرير أو التوكيد. ومن ثمّ، فإنّ القراءة الصوتية لا تُفهم بمعزل عن السياق التخاطبي الذي تُؤدَّى فيه، بل تُعدّ جزءًا من الفعل الخطابي الذي يُوجِّه المعنى ويُؤثّر في المتلقّي.(٢)

أما التنوع الصرفي في القراءات، فيُعدّ من أكثر المستويات تأثيرًا في توجيه الدلالة التداولية، لما تحمله الصيغ الصرفية من حمولة معنوية ووظيفية. فقد يَرِد اللفظ القرآني في قراءة بصيغة الفعل، وفي أخرى بصيغة الاسم، أو بصيغة المعلوم في مقابل المجهول، وهو اختلاف يُنتج تعدّدًا دلاليًّا يُغني المعنى ولا يُناقضه. وقد أكّد المفسّرون أنّ اختلاف الصيغ الصرفية في القراءات يُبرز جوانب متعدّدة للحدث القرآني،

---

(١) حسان، تمام. *اللغة العربية معناها ومبناها*. عالم الكتب، مصر، ٢٠٠٤، ص ١٤٥–١٥٠.

(٢) ابن جني، عثمان. *الخصائص*. ج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٦، ص ٤٣–٤٧.

فيُركّز تارةً على الفعل، وتارةً على الثبوت، أو على الفاعل، أو على الحدث في ذاته.(١)

ومن المنظور التداولي، يُمكن تفسير هذا التنوّع الصرفي بوصفه آلية لتوسيع دائرة الخطاب، بحيث يستوعب مقامات تخاطبية مختلفة. فصيغة الفعل، مثلًا، تُناسب مقام الحركة والتجدد، في حين تُوحي صيغة الاسم بالثبات والاستمرار. وعليه، فإنّ اختلاف القراءة بين الصيغ لا يُعدّ مجرّد تنوّع لغوي، بل توجيهًا دلاليًّا يستجيب لمقتضيات السياق والغرض الخطابي.(٢)

ويُلاحظ أنّ التنوع الصرفي في القراءات يُسهم كذلك في إبراز مقاصد النصّ القرآني، سواء على المستوى العقدي أو التشريعي أو الأخلاقي. فبعض القراءات تُبرز جانب التكليف والمسؤولية، وأخرى تُبرز جانب الرحمة أو التيسير، وهو ما يعكس مرونة تداولية عالية تُتيح للنصّ أن يُخاطب الإنسان في أوضاع مختلفة دون أن يفقد وحدته الدلالية. وقد أشار الشاطبي إلى أنّ تعدّد الصيغ والمعاني في القرآن مقصود لتحقيق سعة الفهم وشمول الخطاب.(٣)

ولا ينفصل التنوع الصوتي عن التنوع الصرفي في بناء الدلالة التداولية، بل يتكاملان ضمن نسق واحد. فالصيغة الصرفية تُحدّد الإطار الدلالي العام، بينما يُسهم الأداء الصوتي في توجيه الإحساس بالمعنى وتكثيف أثره في المتلقّي. وهذا التفاعل بين الصوت والصيغة يُعدّ من الخصائص الأسلوبية الفريدة للنصّ القرآني، التي تجعل دلالته متجدّدة وقابلة للتفاعل مع السياقات المختلفة.(٤)

وعليه، فإنّ أثر التنوع الصوتي والصرفي في القراءات القرآنية لا يُمكن اختزاله في الجانب اللغوي الصرف، بل يجب النظر إليه في ضوء وظيفته التداولية، بوصفه عنصرًا فاعلًا في توجيه المعنى وبنائه. فاختلاف القراءة يُنتج اختلافًا في زاوية النظر إلى الخطاب، ويُسهم في تحقيق غاية التواصل القرآني المتمثّلة في الهداية والتأثير. ومن هنا، تتجلّى أهمية دراسة هذا التنوع ضمن إطار تداولي يُبرز العلاقة بين الأداء والسياق

---

(١) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف *.البحر المحيط في التفسير* .ج ١، دار الفكر، لبنان، ٢٠١٠، ص ٤٠–٤٤.

(٢) فاضل السامرائي *.معاني الأبنية في العربية* .دار عمار، الأردن، ٢٠٠٧، ص ٢١–٢٧.

(٣) الشاطبي، إبراهيم بن موسى *.الموافقات في أصول الشريعة* .ج ٢، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٥، ص ٩–١٣.

(٤) الزركشي، بدر الدين *.البرهان في علوم القرآن* .ج ٢، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٨، ص ١٢٣–١٢٨.

والدلالة، ويمهّد لتحليل مستويات أخرى من التوجيه الدلالي في القراءات القرآنية.

٢.٣.المطلب الثاني: أثر التنوّع النحوي والتركيبي في توسيع المعنى التداولي

يمثّل التنوّع النحوي والتركيبي في القراءات القرآنية مستوى متقدّمًا من مستويات الاختلاف الدلالي المنضبط، إذ لا يقتصر أثره على تغيير مواقع الإعراب أو صور التركيب، بل يتجاوز ذلك إلى توجيه المعنى في سياقه التداولي، بما ينسجم مع مقاصد الخطاب القرآني ووظيفته التواصلية. فالبنية النحوية في القرآن ليست إطارًا شكليًا محايدًا، وإنما هي أداة فاعلة في بناء الدلالة، تتفاعل مع السياق والمقام لإنتاج معانٍ متعدّدة متكاملة.

يظهر هذا الأثر من خلال اختلاف الإعراب في بعض القراءات، حيث يؤدّي تغيّر العلامة الإعرابية أو موقع الكلمة في التركيب إلى اختلاف في توجيه المعنى. وقد تنبّه علماء العربية إلى أنّ الإعراب «فرع المعنى»، وأن تغيّره يدلّ على اختلاف في العلاقات الدلالية بين مكوّنات الجملة. وفي ضوء ذلك، فإنّ اختلاف الإعراب في القراءات لا يُعدّ اختلافًا لفظيًا محضًا، بل يُنتج فروقًا تداولية تُبرز مقاصد متعدّدة للخطاب بحسب السياق.(١)

كما يتجلّى أثر التنوّع التركيبي في اختلاف ترتيب عناصر الجملة بين قراءة وأخرى، كتقديم بعض المكونات أو تأخيرها، أو اختلاف أسلوب الإسناد. ويُعدّ التقديم والتأخير من الوسائل البلاغية التي تُسهم في توجيه المعنى، إمّا بالتخصيص أو بالتوكيد أو بإبراز عنصر معيّن في الخطاب. وقد أكّد البلاغيون أنّ تغيير ترتيب الكلام لا يكون اعتباطيًا، بل تحكمه مقتضيات المقام والغرض(٢). ومن هنا، فإنّ تنوّع التراكيب في القراءات يُتيح للنصّ القرآني أن يُبرز معاني مختلفة في مقامات تخاطبية متعدّدة.

ويُسهم التنوّع النحوي كذلك في اختلاف علاقات الإسناد داخل الجملة، كاختلاف البناء للمعلوم والمجهول، أو اختلاف نوع الجملة بين الاسمية والفعلية. فالجملة الاسمية تُوحي بالثبات والاستمرار، بينما تُفيد الجملة الفعلية الحدوث والتجدّد، وهو فرق دلالي له أثر تداولي واضح في توجيه الخطاب. وقد أشار النحاة والمفسّرون

---

(١) ابن هشام، عبد الله بن يوسف .*مغني اللبيب عن كتب الأعاريب* .ج ١، دار الفكر، لبنان، ٢٠٠٩، ص ٣٤–٣٨.

(٢) السكاكي، يوسف بن أبي بكر .*مفتاح العلوم* .تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٣، ص ١٥٥–١٦٠.

إلى أنّ ورود هذين النوعين من الجمل في القراءات يُسهم في توسيع أفق المعنى، بحيث يستوعب دلالات زمنية ومقامية متعدّدة.(١)

ومن منظور تداولي، يُمكن فهم هذا التنوّع النحوي والتركيبي بوصفه آلية لتكييف الخطاب مع أحوال المخاطَبين. فاختلاف البنية النحوية قد يُناسب مستويات مختلفة من الفهم، أو يخدم أغراضًا تواصلية متنوّعة، كالتقرير، أو الإقناع، أو التحذير. وقد ذهب عدد من الباحثين المعاصرين إلى أنّ مرونة التركيب في النصّ القرآني تُسهم في تحقيق التفاعل بين النصّ والمتلقّي، وتُعزّز قدرته على التأثير في سياقات متغيّرة.(٢)

ويتجلّى أثر هذا التنوّع أيضًا في ظاهرة تعدّد متعلّقات الجارّ والمجرور، أو اختلاف توجيه العطف، وهو ما يؤدّي إلى تعدّد في العلاقات الدلالية داخل النصّ. فاختلاف تعلّق الجارّ والمجرور قد يُغيّر زاوية النظر إلى الحدث أو الحكم، دون أن يخرج عن الإطار العام للمعنى. وقد أشار الزركشي إلى أنّ كثيرًا من وجوه القراءات يُغني بعضُها بعضًا، ويكشف عن معانٍ لا تستوعبها قراءة واحدة منفردة.(٣)

ولا ينفصل التنوّع النحوي والتركيبي عن السياق العام للنصّ، بل يتكامل معه في بناء الدلالة التداولية. فالسياق هو الذي يوجّه اختيار البنية النحوية الأنسب، وهو الذي يحدّد كيفية تلقّيها وتأويلها. ومن ثمّ، فإنّ دراسة هذا التنوّع في إطار تداولي تُبرز أنّ المعنى القرآني ليس نتاج البنية وحدها، ولا السياق وحده، بل ثمرة تفاعل معقّد بينهما.

ويؤكّد هذا التصوّر أنّ تعدّد الدلالة الناتج عن التنوّع النحوي والتركيبي ليس مدعاة للغموض أو الاضطراب، بل مظهر من مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم. فالنصّ الواحد يستوعب دلالات متعدّدة، تُخاطب الإنسان في مستويات مختلفة، وتُلبّي حاجاته المعرفية والروحية والتشريعية. وقد أكّد الشاطبي أنّ هذا التعدّد منضبط بمقاصد الشريعة، ويهدف إلى تحقيق سعة الفهم وشمول الهداية.(٤)

---

(١) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف *البحر المحيط في التفسير*. ج ١، دار الفكر، لبنان، ٢٠١٠، ص ٤٥–٤٩.

(٢) المسدي، عبد السلام. في آليات تحليل الخطاب. دار توبقال، المغرب، ٢٠١٢، ص ١٠١–١٠٦.

(٣) الزركشي، بدر الدين *البرهان في علوم القرآن*. ج ١، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٨، ص ٣٣١–٣٣٦.

(٤) الشاطبي، إبراهيم بن موسى *الموافقات في أصول الشريعة*. ج ٣، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٥، ص ٧٠–٧٥.

وعليه، فإنّ أثر التنوّع النحوي والتركيبي في القراءات القرآنية يُمثّل عنصرًا أساسيًا في توسيع المعنى التداولي للنصّ، إذ يُتيح إمكانات دلالية متعدّدة تُفعَّل بحسب المقام والسياق. وهذا ما يجعل دراسة هذا التنوّع ضرورة منهجية لفهم الخطاب القرآني فهمًا شاملًا، ويُبرز دور القراءات في بناء الدلالة بوصفها آلية تداولية أصيلة، لا مجرّد ظاهرة لغوية فرعية.

٣.٣.المطلب الثالث: تنوّع القراءات ودوره في تعدّد المقاصد الخطابية

يمثّل تنوّع القراءات القرآنية أحد الأبعاد المركزية في فهم الخطاب القرآني بوصفه خطابًا هادفًا ذا مقاصد متعدّدة، تتجاوز الإخبار إلى التوجيه والتقويم والتشريع والتأثير. فالقرآن الكريم لم يأتِ نصًّا جامدًا ذا دلالة أحادية، بل خُوطب به الإنسان في سياقات متنوّعة، فجاءت قراءاته المتعدّدة لتُسهم في توسيع دائرة المقاصد الخطابية، مع الحفاظ على وحدة الرسالة ومرجعية النصّ. ومن ثمّ، فإنّ العلاقة بين تنوّع القراءات وتعدّد المقاصد الخطابية علاقة تكامل وظيفي، لا مجرّد تغاير لغوي.

ينطلق مفهوم **المقاصد الخطابية** من اعتبار الخطاب فعلًا تواصليًا موجَّهًا لتحقيق غايات محدّدة، تتجلّى في التأثير في المتلقّي وتوجيه سلوكه وفهمه. وقد نبّه علماء الأصول والبلاغة إلى أنّ الخطاب الشرعي يتنوّع بتنوّع مقاصده، من تقرير العقائد، إلى تنظيم السلوك، إلى تهذيب النفس. وفي هذا الإطار، يُمكن النظر إلى تنوّع القراءات على أنّه آلية نصّية تُسهم في إبراز هذه المقاصد، كلٌّ بحسب زاوية دلالية مخصوصة.(١)

ويُظهر اختلاف القراءات في كثير من المواضع القرآنية توجّه الخطاب نحو مقاصد متعدّدة، مثل الجمع بين مقصد الإخبار ومقصد التوجيه، أو بين مقصد التشريع ومقصد الوعظ. فقد تُبرز قراءةٌ معنى التقرير والتثبيت، بينما تُبرز قراءة أخرى معنى التحفيز أو التحذير، دون أن يحدث تعارض بينهما. وقد أشار علماء التفسير إلى أنّ القراءات «يُصدّق بعضها بعضًا»، وأنّ اجتماعها يُعطي المعنى كماله، لا نقصه.(٢) وهذا يؤكّد أنّ التنوّع القرائي يُسهم في بناء خطاب ذي طاقة مقاصدية عالية.

ومن المنظور التداولي، يُمكن تفسير هذا التعدّد في المقاصد الخطابية بوصفه استجابةً لاختلاف أحوال المخاطَبين ومستوياتهم الإدراكية. فالقرآن

---

(١) طه، عبد الرحمن .*روح الدين* .المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠١٢، ص ٨٧–٩٢.

(٢) ابن الجزري، محمد بن محمد .*النشر في القراءات العشر* . ج ١، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٦، ص ١٠–١٣.

خطاب موجَّه إلى العامة والخاصة، وإلى المؤمن والمخالف، وإلى الفرد والجماعة، فجاءت القراءات لتُفعّل مقاصد مختلفة بحسب السياق التخاطبي. وقد ذهب عدد من الباحثين إلى أنّ مرونة النصّ القرآني في هذا الجانب تُعدّ من مظاهر إعجازه، إذ يجمع بين الثبات في الأصل، والتنوّع في التوجيه.(١)

كما يُسهم تنوّع القراءات في الجمع بين المقاصد الجزئية والمقاصد الكلّية للخطاب القرآني. فبعض القراءات يُبرز حكمًا جزئيًا أو توجيهًا خاصًا، في حين تُبرز قراءة أخرى البُعد المقاصدي العام، كتحقيق العدل أو رفع الحرج أو ترسيخ الهداية. وقد أكّد الشاطبي أنّ تعدّد الألفاظ والمعاني في النصّ الشرعي مقصود لخدمة المقاصد الكلّية، لا لإحداث اضطراب في الفهم(٢). ويُفهم من ذلك أنّ القراءات تُسهم في ربط الجزئي بالكلي، والنصّي بالمقاصدي.

ويتجلّى هذا الدور المقاصدي للقراءات أيضًا في قدرتها على الجمع بين الخطاب الإخباري والخطاب الإنشائي. فقد تأتي قراءة تُفيد الإخبار عن واقع أو حكم، بينما تأتي قراءة أخرى بصيغة تُوحي بالأمر أو النهي أو التوجيه الضمني. وهذا التنوّع يُثري البعد التداولي للنصّ، إذ يُمكّنه من أداء وظائف خطابية متعدّدة في آنٍ واحد، ويُعزّز تأثيره في المتلقّي.(٣)

ولا يعني تعدّد المقاصد الخطابية الناتج عن تنوّع القراءات فتح المجال لتعدّد غير منضبط في الفهم أو التأويل، بل هو تعدّد محكوم بسياق النصّ وضوابط القراءة الصحيحة ومقاصد الشريعة. فالقراءة المقبولة تُنتج مقصدًا مشروعًا مندرجًا ضمن النسق العام للخطاب القرآني، ولا تُناقض أصوله العقدية أو التشريعية. وقد نبّه علماء الأصول إلى أنّ اختلاف الدلالة لا يعني اختلاف المقصد الأعلى، بل تنوّع طرق التعبير عنه.(٤)

وعليه، فإنّ تنوّع القراءات القرآنية يُمثّل عنصرًا حاسمًا في بناء الخطاب القرآني بوصفه خطابًا مقاصديًا تداوليًا، قادرًا على استيعاب تعدّد الأغراض والوظائف ضمن نصّ واحد. وهذا ما يجعل دراسة القراءات في ضوء المقاصد الخطابية ضرورة منهجية لفهم عمق الدلالة

(١) المسدي، عبد السلام *في آليات تحليل الخطاب*. دار توبقال، المغرب، ٢٠١٢، ص ١٣٠–١٣٦.

(٢) الشاطبي، إبراهيم بن موسى. *الموافقات في أصول الشريعة*. ج ٢، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٥، ص ٥–١٠.

(٣) الزركشي، بدر الدين. *البرهان في علوم القرآن*. ج ٢، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٨، ص ١٤٠–١٤٥.

(٤) ابن عاشور، محمد الطاهر. *مقاصد الشريعة الإسلامية*. دار النفائس، الأردن، ٢٠٠١، ص ١١٣–١١٨.

القرآنية، ويُبرز أنّ التنوّع القرائي ليس مجـرّد ظاهرة لغوية، بل استراتيجية خطابية تُسهم فـي تحقيق الهداية والتأثير، وفق مقتضيات السـياق والمقام.

٤. المبحث الثالث: التطبيقات التداولية لتنـوّع القراءات القرآنية

٤.١.المطلب الأول: نمـاذج تطبيقيـة لتنـوّع القراءات وأثرها في السياق التداولي

يهدف هذا المطلب إلى الانتقال مـن التأصـيل النظري إلى التطبيق العملي، عبر تحليل نماذج مختارة من الآيات القرآنية التي يظهر فيها أثـر تنوّع القراءات في توجيـه الدلالـة التداوليـة. فالتطبيق يُبرز بوضوح كيف تتفاعل البنية اللغوية مع السياق والمقام، وكيف تُسهم القراءات المتعدّدة في توسيع أفق المعنـى، بمـا يخـدم المقاصـد الخطابية للنصّ القرآني، دون إخـلال بوحدتـه الدلالية.

من النماذج البارزة ما ورد في قوله تعالى:﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ وقراءة ﴿**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ .فقـراءة *مالك* تُبرز معنى التملّك والتصرّف المطلق، بينما تُبرز قراءة *ملك* معنى السلطان والهيمنة والحكم. ومن المنظور التداولي، يتفاعل هذان الوجهان مع مقام الخطاب في سورة الفاتحة، حيث يُخاطَـب العبد ربَّه في مقام العبادة والخضـوع. فتنـوّع القراءة يُنتج توسعة دلالية تجمع بين بُعد السلطة وبُعد التصرّف، بما يُعمّق أثر الخطاب في نفس المتلقّي، ويُرسّخ معنـى الخضـوع الشـامل لله تعالى.(١)

ويُعدّ هذا المثال نموذجًا واضحًا لتكامل القراءات في بناء الدلالة التداوليـة؛ إذ لا تُفهـم إحـدى القراءتين بوصفها نافية للأخرى، بل بوصـفهما متضافرتين في تحقيق مقصد عقدي واحد، هـو تعظيم الله تعالى وإثبات كمال سلطانه. وقد نبّـه المفسّرون إلى أنّ اجتماع القراءتين أولـى مـن الاقتصار على واحدة، لما في ذلـك مـن سـعة المعنى وشموله.(٢)

ومـن النمـاذج التطبيقيـة كـذلك قولـه تعالى:﴿**وَيَكْذِبُونَ**﴾ وقراءة ﴿**وَيُكَذِّبُونَ**﴾ .فالقراءة الأولى تُفيد صدور الكذب منهم بوصفه فعلًا ذاتيًا، بينما تُفيد الثانية إسناد فعل التكذيب إلى غيرهم، أي تكذيبهم للحق أو للرسـول. ومـن الناحيـة التداوليـة، يُنـتج هـذا الاخـتلاف تـوجيهين دلاليين:أحدهما يُركّز على السـلوك الأخلاقـي للمخاطَبين، والآخر يُبرز موقفهم مـن الرسـالة

(١) ابن الجزري، محمد بن محمد .*النشر في القراءات العشر* . ج ١، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٦، ص ٣٠–٣٤.

(٢) الطبري، محمد بن جرير .*جامع البيان عـن تأويـل آي القرآن* .ج ١، دار هجر، مصر، ٢٠٠١، ص ١٤٣–١٤٦.

نفسها. ويُسهم هذا التنوّع في توسيع دائرة الخطاب ليشمل البُعد الأخلاقي والبُعد العقدي في آنٍ واحد.(١)

ويظهر أثر السياق التداولي هنا في كون الآية موجّهة في مقام التقريع والإنذار، حيث تُسهم كلّ قراءة في تعزيز جانب من جوانب هذا المقام. فالتنوّع القرائي لا يُغيّر مقصد الخطاب، بل يُكثّف أثره ويُعمّقه عبر تعدّد زوايا التوجيه، وهو ما ينسجم مع طبيعة الخطاب القرآني القائم على التأثير والإقناع.

ومن النماذج ذات البُعد التداولي الواضح قوله تعالى:﴿**نُنْشِزُهَا**﴾ وقراءة ﴿**نُنْشِرُهَا**﴾ .فقراءة *ننشرها* تُفيد الإحياء والبسط، بينما تُفيد قراءة *ننشزها* الرفع والتركيب. ومن خلال السياق الذي يتناول إحياء الموتى، يُسهم هذا التنوّع في تقديم صورتين متكاملتين لعملية الإحياء:صورة الإعادة إلى الحياة، وصورة إعادة البناء والتركيب. ومن المنظور التداولي، يُخاطَب العقل الإنساني هنا بأدوات تصويرية متعدّدة تُعزّز الإقناع بقدرة الله تعالى، وهو مقصد خطابي مركزي في هذا السياق.(٢)

ويُبرز هذا المثال كيف يُسهم تنوّع القراءات في بناء خطاب حِجاجي متكامل، يُراعي اختلاف مستويات الإدراك لدى المخاطَبين، ويُقدّم المعنى في صور متعدّدة دون إخلال بوحدته. وقد أشار علماء التفسير إلى أنّ اختلاف القراءات في مثل هذه المواضع يُقوّي الاستدلال ولا يُضعفه.(٣)

كما يُمكن الوقوف عند قوله تعالى:﴿**وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**﴾ وقراءة ﴿**وَلا تَسْأَلْ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمِينَ**﴾ .فالقراءة الأولى تُفيد الإخبار عن حال المجرمين يوم القيامة، بينما تحمل القراءة الثانية صيغة نهي موجّهة إلى النبي ﷺ، تفيد الزجر والتنفير من حالهم. ومن الناحية التداولية، يُنتج هذا التنوّع انتقالًا بين خطاب إخباري وخطاب إنشائي، يُحقّق مقصدين متكاملين:تقرير الحقيقة، والتحذير منها.(٤)

ويُظهر هذا المثال بوضوح كيف يُسهم تنوّع القراءات في تعدّد الوظائف الخطابية للنصّ

(١) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف .*البحر المحيط في التفسير* .ج ٢، دار الفكر، لبنان، ٢٠١٠، ص ٨٧–٩٠.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر .*التحرير والتنوير* .ج ٣، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ص ٣٥–٣٨.

(٣) الزركشي، بدر الدين .*البرهان في علوم القرآن* .ج ١، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٨، ص ٣٣٧–٣٤١.

(٤) الشاطبي، إبراهيم بن موسى .*الموافقات في أصول الشريعة* .ج ٢، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٥، ص ١٤–١٨.

القرآني، حيث تتجاور الوظيفة الإخبارية والوظيفة التوجيهية ضمن سياق واحد. وهذا التعدّد يُعزّز التأثير التداولي للنصّ، ويُبرز مرونته في مخاطبة المتلقّي بحسب المقام.

وعليه، تُبيّن هذه النماذج التطبيقية أنّ تنوّع القراءات القرآنية ليس مجرّد ظاهرة لغوية، بل آلية تداولية فاعلة في توجيه المعنى وبناء الخطاب. فكلّ قراءة تُسهم في تفعيل بُعد دلالي أو مقصدي معيّن، وتتكامل القراءات في ما بينها لإنتاج خطاب قرآني غنيّ بالدلالات، قادر على التفاعل مع السياقات المختلفة. ومن هنا، تتجلّى أهمية اعتماد المنهج التداولي في دراسة القراءات، بوصفه إطارًا كاشفًا عن عمق هذا التنوّع ووظيفته الخطابية.

٢.٤.المطلب الثاني: أثر القراءات في تنوّع أفعال الكلام

يُعدّ مفهوم **أفعال الكلام** من المفاهيم التداولية التي تُبرز البُعد الوظيفي للغة، حيث لا يُنظر إلى القول بوصفه حاملًا لمعنى خبري فحسب، بل بوصفه فعلًا يُنجَز في سياق تواصلي لتحقيق غاية معيّنة. وفي ضوء هذا التصوّر، يُمكن مقاربة تنوّع القراءات القرآنية بوصفه عاملًا مؤثّرًا في تنويع أفعال الكلام داخل النصّ القرآني، بما يُسهم في توسيع وظائف الخطاب وتعدّد مقاصده التداولية.

ينطلق هذا التحليل من اعتبار أنّ النصّ القرآني خطابٌ فعليٌّ موجَّه، لا يقتصر على الإخبار، بل يضمّ أنماطًا متعدّدة من الأفعال الكلامية، كالأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، والتقرير، والتوبيخ، والدعاء. وقد نبّه علماء البلاغة والأصول إلى أنّ اختلاف الصيغة أو الأسلوب يُؤدّي إلى اختلاف في نوع الفعل الخطابي، وإن اتّحد المضمون العام[١]. ومن هنا، فإنّ تنوّع القراءات يُعدّ مدخلًا مهمًّا لفهم هذا التعدّد الوظيفي في الخطاب القرآني.

يتجلّى أثر القراءات في تنوّع أفعال الكلام من خلال اختلاف الصيغة بين الخبر والإنشاء في بعض المواضع. فقد تأتي قراءة بصيغة الخبر، وتأتي أخرى بصيغة الطلب أو النهي، وهو اختلاف يُنتج انتقالًا في الفعل الكلامي من مجرّد الإخبار إلى التوجيه أو التحذير. ومن المنظور التداولي، يُسهم هذا التحوّل في تعزيز التأثير الخطابي، إذ يُخاطَب المتلقّي تارةً بوصفه سامعًا

(١) السكاكي، يوسف بن أبي بكر .*مفتاح العلوم* .تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٣، ص ١٦٩–١٧٤.

لخبر، وتارةً بوصفه مخاطَبًا مكلَّفًا بالفعل أو الترك.(١)

كما يظهر هذا الأثر في اختلاف درجات القوة الإنجازية للفعل الكلامي الواحد. فبعض القراءات تُفيد التقرير الهادئ، بينما تُفيد أخرى التوكيد أو الزجر، وهو ما ينعكس على نوع الفعل الكلامي وقوّته. وقد أشار عدد من الباحثين إلى أنّ الصيغة اللغوية تُؤثّر في تحديد القيمة الإنجازية للقول، أي الأثر الذي يُحدثه في المتلقّي. ومن ثمّ، فإنّ اختلاف القراءة يُنتج اختلافًا في شدّة الفعل الكلامي، دون أن يُغيّر المقصد العام للخطاب(٢).

ويُسهم تنوّع القراءات كذلك في الجمع بين أفعال كلامية مباشرة وأخرى غير مباشرة. فقد تُؤدّي قراءةٌ ما وظيفة الأمر الصريح، في حين تُؤدّي قراءة أخرى الوظيفة نفسها بصيغة خبرية تحمل معنى الإلزام أو التهديد ضمنًا. وهذا الأسلوب يُعدّ من الأساليب البلاغية التي تُعزّز البُعد التداولي للنصّ، إذ تُراعي حال المخاطَب واستعداده النفسي لتلقّي الخطاب.(٣)

ومن زاوية تداولية، يُمكن القول إنّ تنوّع أفعال الكلام الناتج عن اختلاف القراءات يُعبّر عن مرونة خطابية عالية، تُمكّن النصّ القرآني من أداء وظائف متعدّدة في سياق واحد. فالخطاب الواحد قد يجمع بين الإقناع والتقرير، أو بين التعليم والتقويم، بحسب القراءة المعتمدة. وقد نبّه المفسّرون إلى أنّ هذا التنوّع يُغني المعنى ولا يُناقضه، بل يُبرز وجوهًا مختلفة من الهداية المقصودة.(٤)

ويتجلّى هذا التنوّع في أفعال الكلام بوضوح في الخطاب التشريعي، حيث تُسهم القراءات في إبراز درجات مختلفة من الطلب، بين الوجوب والندب، أو بين الزجر والتحذير. وقد أكّد الأصوليون أنّ دلالة الصيغة على الحكم الشرعي قد تتأثّر بالسياق وبأسلوب الخطاب، وهو ما

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر. *التحرير والتنوير*. ج ٤، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ص ١١٢–١١٦.

(٢) طه، عبد الرحمن. *اللسان والميزان*. المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠٠٦، ص ١٤١–١٤٦.

(٣) الجرجاني، عبد القاهر. *دلائل الإعجاز*. تحقيق محمود شاكر، دار المدني، السعودية، ١٩٩٢، ص ٦٣–٦٧.

(٤) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. *البحر المحيط في التفسير*. ج ٣، دار الفكر، لبنان، ٢٠١٠، ص ٥٤–٥٨.

يجعل تنوّع القراءات عاملًا مساعدًا في توسيع أفق الفهم المقاصدي للنصّ.[١]

ولا يعني هذا التعدّد في أفعال الكلام فتح الباب أمام اضطراب دلالي أو تشريعي، بل هو تعدّد منضبط بسياق النصّ ومقاصده الكلّية. فكلّ قراءة صحيحة تُنتج فعلًا كلاميًّا مشروعًا، ينسجم مع النسق العام للخطاب القرآني. وقد أشار الشاطبي إلى أنّ تنوّع الأساليب في النصّ الشرعي مقصود لتحقيق سعة البيان وشمول الهداية.[٢]

وعليه، فإنّ أثر القراءات في تنوّع أفعال الكلام يُمثّل بُعدًا تداوليًّا جوهريًّا في فهم النصّ القرآني، إذ يكشف عن طاقته الخطابية وقدرته على التفاعل مع المتلقّي بوسائل متعدّدة. وهذا ما يُبرز أنّ تنوّع القراءات ليس مجرّد اختلاف أدائي أو لغوي، بل آلية وظيفية تُسهم في بناء خطاب قرآني متكامل، يجمع بين تعدّد الوظائف ووحدة المقصد.

٣.٤.المطلب الثالث: القراءات القرآنية وأثرها في التعدّد التفسيري التداولي

يُعَدّ التعدّد التفسيري من الخصائص البارزة للنصّ القرآني، وهو تعدّد منضبط تحكمه بنية النصّ وسياقاته ومقاصده. وتأتي القراءات القرآنية في صميم هذا التعدّد، إذ تُسهم بوصفها وجوهًا أدائية معتبرة في توجيه الفهم، وتوسيع أفق التأويل، ضمن إطار تداولي يراعي المقام وقصد الخطاب. ومن ثمّ، فإنّ دراسة أثر القراءات في التعدّد التفسيري التداولي تكشف عن آلية مركزية في إنتاج المعنى القرآني وتلقيه.

ينطلق التفسير التداولي من اعتبار المعنى نتاجًا لتفاعل النصّ مع سياق الاستعمال، لا حصيلةً للبنية اللغوية وحدها. وفي هذا الإطار، تُعدّ القراءات عنصرًا سياقيًا داخليًا للنصّ، لأنها تضيف إلى اللفظ إمكانات دلالية تُفَعَّل بحسب المقام. وقد نبّه علماء علوم القرآن إلى أنّ اختلاف القراءات يفتح وجوهًا من التفسير «كلّها حقّ»، ما دامت مندرجة في إطار القراءة الصحيحة وموافِقةً لسياق الآية[٣]. ويُبرز هذا التصوّر أنّ التعدّد التفسيري ليس طارئًا على النصّ، بل مقصودًا لذاته.

(١) الشاطبي، إبراهيم بن موسى .*الموافقات في أصول الشريعة* .ج ٣، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٥، ص ٢٢–٢٧.

(٢) الزركشي، بدر الدين .*البرهان في علوم القرآن* .ج ٢، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٨، ص ١٤٨–١٥٣.

(٣) السيوطي، جلال الدين .*الإتقان في علوم القرآن* .ج ١، دار الفكر، لبنان، ٢٠١١، ص ١٦٧–١٧١.

ويتجلّى أثر القراءات في التعدّد التفسيري من خلال توجيه المفسّر لاختيار معنى دون آخر، أو الجمع بين معانٍ متكاملة، استنادًا إلى اختلاف الأداء. فقد تُفضي قراءةٌ إلى إبراز بُعد عقدي، بينما تُبرز قراءة أخرى بُعدًا تشريعيًا أو أخلاقيًا، ويكون الجمع بينهما أَوْلى لفهم الخطاب في شموله. وقد أشار الطبري إلى أنّ القراءات يُفسِّر بعضها بعضًا، وأنّ حمل الآية على مجموع ما تحتمله القراءات يُقوّي المعنى ولا يُضعفه.(١)

ومن المنظور التداولي، يُمكن تفسير هذا التعدّد بوصفه استجابة لاختلاف أحوال المخاطَبين ومقامات الخطاب. فالقراءة التي تُبرز معنى الوعيد، مثلًا، تتناسب مع مقام الزجر والإنذار، في حين تُبرز قراءة أخرى معنى الوعد أو التيسير بما يلائم مقام الترغيب. ويُسهم هذا التنوّع في تمكين النصّ من أداء وظائف تفسيرية متعدّدة في سياق واحد، دون تناقض دلالي. وقد أكّد البلاغيون أنّ اختلاف الأساليب يُنتج اختلافًا في جهة الخطاب، وهو ما ينعكس مباشرة على التفسير.(٢)

كما يظهر أثر القراءات في توجيه الخلاف التفسيري بين المفسّرين، حيث يُبنى الاختلاف أحيانًا على اعتماد قراءة معيّنة دون غيرها. غير أنّ هذا الخلاف يظلّ في إطار «اختلاف التنوع»، لا «اختلاف التضاد»، لأنّ كلّ قراءة تُنتج معنى صحيحًا في ذاته، منسجمًا مع مقاصد النصّ. وقد نبّه الزركشي إلى أنّ من الخطأ ترجيح تفسيرٍ بإبطال غيره إذا كان كلٌّ منهما مؤسَّسًا على قراءة متواترة(٣). ويُبرز هذا التنبيه ضرورة استحضار البعد التداولي في التفسير، بما يمنع التضييق غير المبرّر لأفق المعنى.

ويتعمّق هذا التعدّد التفسيري حين تتفاعل القراءات مع السياق العام للسورة، أو مع أسباب النزول، أو مع المقاصد الكلّية للشريعة. فالقراءة قد تُعيد توجيه فهم الآية في ضوء مقصد معيّن، كتحقيق العدل أو رفع الحرج أو ترسيخ الهداية. وقد أكّد الشاطبي أنّ تعدّد الدلالات في النصّ الشرعي مقصود لتحقيق سعة الفهم وشمول التكليف، بشرط بقاء المعنى ضمن حدود المقاصد

(١) الطبري، محمد بن جرير .*جامع البيان عن تأويل آي القرآن* .ج ١، دار هجر، مصر، ٢٠٠١، ص ١٨٠–١٨٤.

(٢) الجرجاني، عبد القاهر .*دلائل الإعجاز* .تحقيق محمود شاكر، دار المدني، السعودية، ١٩٩٢، ص ٧٢–٧٧.

(٣) الزركشي، بدر الدين .*البرهان في علوم القرآن* .ج ١، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٨، ص ٣٤٢–٣٤٦.

الكلّية[١]. ويُعدّ هذا الإطار المقاصدي ضابطًا تداوليًا للتعدّد التفسيري.

ومن جهة أخرى، يُسهم التعدّد التفسيري التداولي الناتج عن القراءات في تجديد فهم النصّ عبر العصور، دون الخروج عن ثوابته. فمرونة المعنى، المستندة إلى تنوّع القراءات، تُتيح للنصّ القرآني أن يظلّ حاضرًا وفاعلًا في سياقات تاريخية وثقافية متغيّرة. وقد أشار ابن عاشور إلى أنّ من وجوه إعجاز القرآن قابليته الدائمة للفهم المتجدّد، مع ثبات نصّه وأصول معانيه[٢]. وتُعدّ القراءات إحدى الآليات الأساسية التي تُسهم في تحقيق هذا التوازن.

وعليه، فإنّ القراءات القرآنية تُشكّل رافدًا أساسًا للتعدّد التفسيري التداولي، إذ تُغني المعنى وتُوسّع أفق التأويل، دون أن تُفضي إلى اضطراب أو تناقض. وهذا ما يجعل استحضار القراءات في التفسير ضرورة منهجية، لا خيارًا اجتهاديًا، ويُبرز أنّ التفسير التداولي للقرآن لا يكتمل إلا بالنظر إلى التنوّع القرائي بوصفه مكوّنًا بنيويًا في إنتاج الدلالة وفهم الخطاب.

٥. الخاتمة:

خلص هذا البحث إلى أنّ تنوّع القراءات القرآنية يُمثّل مكوّنًا بنيويًا أصيلًا في بناء الدلالة التداولية للنصّ القرآني، وليس مجرّد اختلاف أدائي أو لغوي. فقد تبيّن أنّ هذا التنوّع يُسهم في توسيع أفق المعنى، وتعدّد المقاصد الخطابية، وتنويع أفعال الكلام، بما ينسجم مع طبيعة الخطاب القرآني الموجَّه إلى الإنسان في سياقات ومقامات متعدّدة. كما أظهرت الدراسة أنّ القراءات القرآنية تُنتج تعدّدًا تفسيريًا منضبطًا تحكمه ضوابط القراءة الصحيحة ومقاصد الخطاب، ويُسهم في إثراء الفهم دون أن يُفضي إلى تناقض دلالي.

وأكّد البحث، من خلال الجمع بين التأصيل النظري والتطبيق التداولي، أنّ اعتماد المنهج التداولي في دراسة القراءات يتيح الكشف عن وظائف دلالية وخطابية عميقة، ويُبرز مرونة النصّ القرآني وقدرته على التفاعل مع المتلقّي عبر العصور. ويُوصي البحث بضرورة توسيع الدراسات التداولية التطبيقية في مجال القراءات القرآنية، لما لها من أثر في تجديد فهم الخطاب القرآني، وربطه بسياقاته التواصلية، مع الحفاظ على ثوابته النصّية ومقاصده الكلّية.

---

(١) الشاطبي، إبراهيم بن موسى. *الموافقات في أصول الشريعة*. ج ٣، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٥، ص ٧٨–٨٣.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر. *التحرير والتنوير*. ج ١، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ص ٤٥–٤٩.

المصادر:

١- السيوطي، جلال الدين .*الإتقان في علوم القرآن* .ج ١، دار الفكر، لبنان، ٢٠١١.

٢- الطبري، محمد بن جرير .*جامع البيان عن تأويل آي القرآن* .ج ١، دار هجر، مصر، ٢٠٠١.

٣- الجرجاني، عبد القاهر .*دلائل الإعجاز* . تحقيق محمود شاكر، دار المدني، السعودية، ١٩٩٢،

٤- الزركشي، بدر الدين .*البرهان في علوم القرآن* .ج ١، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٨،

٥- الشاطبي، إبراهيم بن موسى .*الموافقات في أصول الشريعة* .ج ٣، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٥.

٦- ابن عاشور، محمد الطاهر .*التحرير والتنوير* .ج ١، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.

٧- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف . *البحر المحيط في التفسير* .ج ٣، دار الفكر، لبنان، ٢٠١٠.

٨- طه، عبد الرحمن .*اللسان والميزان* . المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠٠٦.

٩- السكاكي، يوسف بن أبي بكر *مفتاح العلوم* .تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٣.

١٠- ابن الجزري، محمد بن محمد .*النشر في القراءات العشر* .ج ١، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٦.

١١- المسدي، عبد السلام *في آليات تحليل الخطاب* .دار توبقال، المغرب، ٢٠١٢.

١٢- ابن هشام، عبد الله بن يوسف *مغني اللبيب عن كتب الأعاريب* .ج ١، دار الفكر، لبنان، ٢٠٠٩.

١٣- فاضل السامرائي *معاني الأبنية في العربية* .دار عمار، الأردن، ٢٠٠٧.

١٤- ابن جني، عثمان .*الخصائص* .ج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٦.

١٥- حسان، تمام .*اللغة العربية معناها ومبناها* .عالم الكتب، مصر، ٢٠٠٤.